اللغة العربية بين الحاضر والمستقبل

ممدوح فاخوري

لعل من أخطر المشكلات التي يُواجهها الكاتب العربي، في الوقت الحاضر، مشكلة اللغة التي بها يكتب.. صحة هذه اللغة وسلامة الألفاظ والتراكيب التي يستعملها في كتابته.. فقد كثرت في المدة الأخيرة الانتقادات والملاحظات والمآخذ التي تُوجَّه إلى بعض من يكتبون بسبب ما تنزلق إليه أقلامهم من أخطاء لغوية بعضها مما شاع حتى كاد ينزل في الأوهام منزلة الصحيح، وبعضها الآخر بيِّن واضح لا يكاد يخفى على الفئة المثقفة من القرّاء.

وكان من الموضوعات التي احتواها جدول أعمال «**ندوة اللغة العربية**» في ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٠ «**ضعف الأداء عند الجيل الجديد**». وضعف الأداء لا يقف عند حد الخطأ اللغوي في اللفظ، بل يعدو ذلك إلى التركيب والتعبيرعامَّةً، وهما أدهى وأمرّ.

وأذكر أن كاتباً صحفياً ملتزماً كتب يقول: «إن هذا الضعف قد وصل إلى حدٍّ خطير بات يفرض على كل المعنيَّين.. الاهتمام بوسائل علاجه..» إن هذا – كما قال– «الموضوع الرئيسي لأنه يلامس مستقبل اللغة العربية برمَّته»[1].

يقول الدكتور وليد مشوّح: «إن الهجمة الشرسة على اللغة العربية،

(١) صحيفة البعث – ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٧.

ومحاولة تسطيحها هي دون ريب هجمة على الوجود العربي»[٢].

ويقول الأستاذ عبد الغني العطري: «تسلَّلت العامية والجهل باللغة حتى إلى بعض صحفنا العربية»[٣].

وتقول الكاتبة قمر كيلاني: «هذه الدوحة العظيمة الخالدة (اللغة)... تتساقط.. تتهاوى تحت فؤوس اللهجات المحلية وآفات العامية وتسرُّبها حتى إلى الأدب»![٤].

* * *

وقد تقرأ كتاباً، أو نقداً لكتاب، فتطالعك صفحاته أو يواجهك ناقده بعدد قليل أو كثير من «الأخطاء»، وقد يحتاط فيها «لنفسه» أو لمنقوده فيسمِّيها «هنات»، وقد يكون رفيقاً مترخّصاً، فلا يستقصي فيها، فيصفها «باليسر» و«البساطة»، وبأنها لا تخفى على القارئ الفطن اللبيب .. إلخ.. ضنَّاً بنفسه أن يؤخذ بتهمة الجمود والتَّزمُّت، أو أن يصنَّف في عداد المحنَّطين وهو مايزال حيّاً يرزق، يغدو ويروح بين الأحياء..

المهم أن هناك إجماعاً على تردّي اللغة العربية، وعلى ضرورة الإسراع في العلاج، قبل تفاقمه.

* * *

المشكلة – كما ترى– لا تخلو من حرج وتعقيد، إذ كانت مما يتعلق بسمعة من يتصدَّى لها، وينبري لعلاجها، وفي زعمه أن العقبى له هي الأجر والثواب.. وأشقُّ من ذلك وأعقدُ أن تستطيع جمع مختلف الآراء ومتباينها، ولو

(٢) الأسبوع الأدبي – ٤/ ٣/ ٢٠٠٠.

(٣) جريدة «تشرين» – ١٧/ ٥/ ٢٠٠٠.

(٤) «الثورة» – ٢٨/ ١٢/ ١٩٩٠.

في طرف منها، بعد أن بلغ الخلاف فيها مبلغاً عسيراً قد يشق معه على بعضهم تحديد الصَّحيح منها وغير الصَّحيح، وما هو في منزلةٍ أقربَ إلى هذا الجانب أو ذاك، حتى لقد تبدو هيِّنة عند بعضهم بالقياس إليها مشكلة الخلاف في مذاهب الأدب والأسلوب والقول، لتعدُّدها وسعتها وكثرة النزعات والاتجاهات فيها.. فضلاً عن أن بعضهم يكتفي بأن ينظر إليها على أنها نتيجة طبيعية للتطورات الحتمية التي تصيب كل نواحي الحياة، أو أن التطور فيها أسرع وأوسع – كأن اللغة بمعزل عن ذلك كلِّه! – بحيث لا يستطيع أن يقف في وجهها أحد مهما كابَر وعانَد، فتترك طابعها القويَّ المؤثِّر فيها جميعها، وتدع للزمن – والزمن وحده – أن يُبقي على الأصلح منها والأقوم، والأقوى على الرُّسوخ والبقاء... إن هذا الفصل الغريب بين الأدب واللغة، خصوصاً في مجال التطور، فيه كثير من التجاوز الذي لا مسوِّغ له ولا دليل عليه.. وثَمَّة – للُّغة – قواعدُ وأصول لا يمكن تعدِّيها، ولا يمكن إنساناً أن يدَّعي أدباً، أو يقحم نفسه في الأدب، وهو خِلْوٌ منها، و«فقير الحال» فيها، وفي شغل عنها بتهويماته البهلوانية التي يسمِّيها أدباً أو شعراً، وليست من ذلك في شيء، وما كانت اللغة يوماً أُلهيَّة يعبث بها الهواة والحواة، وإنما هي وجود وكيان ومصير؛ ولا تكون لغة أو أدب، بلا تحصيل وعلم، وبلا قواعد وأساس.. ويذكر الدكتور وليد مشوِّح أنه عاتَبَ «روائياً على كثرة تجاوزه قواعد اللغة، فأجاب ممتعضاً: أنا أديب ولست لغوياً.. فأجابه: «حاول أن تكون لغوياً لتتأكد صفتك الأولى، وإلاَّ فستخسر الصِّفتين كلتيهما»![٥]، واللغة – كما يقول الدكتور عبد السَّلام العجيلي «هي وعاء الثقافة»[٦]، أي وعاء الأدب والفكر جميعاً.

(٥) «الأسبوع الأدبي» – ١٢/ ٧/ ١٩٩٧.

(٦) «الثورة الثقافي» –٤/ ١١/ ٢٠٠١.

واللغة، بعد هذا، هي المشكلة الكبرى التي باتت تقلق الكاتب والقارئ – أو «المتلقِّي» على السَّواء.. القارئَ الحريص على تحصيل الثقافة الصحيحة مما يقرأ، والكاتبَ الحريص على أن يملك سلامة الأداة اللغوية التي بها يكتب، والحريصَ أيضاً على ألاَّ يؤخذ أو يؤاخذ مِن حيث يظن نفسه معصوماً مبرَّأً، ولا تُحصى عليه أغلاط قد تكون في ذاتها محقَّقة أو مزعومة، أو من ذلك النوع الذي لم يقطع به أساتذة اللغة المختصُّون أنفسهم، أو كانوا في جدال فيه أو خلاف..

بعض هذه الأخطاء قد يكون هيِّناً أمر الجزم فيه، جسيمة تبعته على صاحبه، إن لم يَعْدُ كونهُ خطأً من تلك الأخطاء النحوية التي تنجم عن زلَّة لسان أو قلم، أو استعمالاً هجيناً أو دخيلاً مثل كلمة «بالكاد»، و«بدوره» و«بالتالي»، وعبارة «ليس فقط» – المترجمة ترجمة حرفية–، و«ليس» بدلاً من «لا»، كقولهم: «يقرأ كل كتاب راقٍ وليس كل ما تصل إليه يداه..» بدلاً من «لا كل ما تصل إليه يداه» أو «قَدِمَ زيدٌ لا عمروٌ».. إلخ.. وغيرها مما تسبق إليه أقلام بعض المترجمين الحَرْفِيِّين والمدَّعين، الضائعين بين مشية الطاووس ومشية الغراب.. وهم قد يكونون سبَّاقين.. ولكن إلى أين؟..

وبعض هذه الأخطاء قد يكون صعباً أمر الجزم فيه، هيِّنة تبعته على صاحبه، وقد ترى بعضها أخطاء وليست كذلك عند غيرك! وبعضها من ذلك الخطأ الشائع الذي يُنزله بعضهم منزلة الصَّحيح، أو يأبى إلاَّ أن يعدَّه صحيحاً بعد إذ شاع، وقد يناطح فيه من يشهر قرونه للنطاح. مثال الأول عبارة «اعتنق مبدأ» وهو تعبير مترجم، ولكنه قد يكون مقبولاً سائغاً، ومثال الثاني كلمة «يفشل» وهي بمعنى غير معنى «الإخفاق» – أو يُخفق –، وصاحبها «فَشِلٌ»..

أمَّا «أخفق» فمعناها في المعجم: طلبَ حاجةً فلم يدركها؛ وكذلك هي عند الزمخشري في «أساس البلاغة» وغيره، ولكنَّ «فَشِلَ» ترِد في المعجم «الوسيط» بمعنى «أخفق».. وأذكر أن الأديب الكبير «العقاد» كان يستحسن

هذا المعنى ويزكّيه، ويرى أنه لَقَطٌ ثمين، ومعناها الأصلي: ضَعُفَ وكَسِلَ وجَبُنَ؛ وشتَّان ما بين المعنيين!.

ويرى بعضهم أن التساهل في «تطوير» اللغة والألفاظ قد يجرُّ إلى مزيد من ذلك، ويُخرج اللغةَ مُخْرَجاً تضيع فيه صورتها الأصلية، ويقود إلى مزيد من الفوضى والحَيرة والتَّردُّد..

* * *

والأمثلة كثيرة، والكاتب حيالها بين فريقين متباعدين، فريق متشدّد، لا يُقرّ وجهاً من وجوه «التطوير» والتجديد، ولو على سبيل النقل أو المجاز أو القياس، وفريق مندفع وراء كل جديد ولو كان يخرج أحياناً على قوانين اللغة وقواعدها؛ وبين هذين فريق معتدل منصف يخشى على اللغة من آفتي الجمود والانحلال على السَّواء، ولكنه لا يملك دائماً القطع برأي حاسم يوفِّق بين شتيت الآراء، أو يبتّه بتّاً كاملاً، ويرى أن الحل عند مجامعنا اللغوية، فهي الموكَّلة بذلك، وهي لا تعيا عن الحل الذي يلائم منطق التطور وضرورات العصر، وهذا مما سيأتي بيانه وتفصيله، في مقالٍ آتٍ.

وثمة فريق يرى ألاَّ تسرف بعض المجامع في تصويب[٧] بعض ما شاع وغلب على تعبير بعض الكتّاب، كلفظ «غطَّى»، ومن هذا الفريق المرحوم الأستاذ صلاح الدين الزعبلاوي الذي يأخذ على مجمع اللغة العربية في القاهرة تصويب استعمال «التَّغطية» بمعنى «الاستيعاب»، وهي في الأصل ترجمة للفظ أجنبي.. «فإذا صحَّ هذا – والكلام للأستاذ زعبلاوي – كان لك أن تقول: ذهب فلان لتغطية أخبار المؤتمر، وأنت تعني أنه ذهب لتقصِّي أخبار المؤتمر

(٧) التصويب من صَوَّبَ قوله أي عَدَّهُ صواباً. وقد أجاز مجمع اللغة في القاهرة أن يستعمل في معنى تقويم الخطأ. ولا أرى حاجة إلى ذلك، إذ يمكن في هذه الحال استعمال كلمة «تصحيح» وغيرها..

وإعلانها، فكيف يُعبَّر عن جمع الأخبار لإعلانها بالتغطية، والتغطية في العربية هي السّتر والحجب، وكيف يستقيم قولك: قد توافر في السُّوق ما يغطِّي الحاجة، وأنت إذا سترت الحاجة وحجبتها استغنيت عن السُّوق وما فيها؟»[٨].

العربيَّة بين اللغات:

ويتحدثون عن صعوبة اللغة العربية، ودعوة بعض الأفهام الكليلة إلى ترك اللغة الفصيحة، واستعمال اللغة العامية في التعبير، واللغة الأجنبية في التعليم الجامعي؛ بل إن بعضهم أعجبته «نكهة» الحروف اللاتينية فتحمَّس، ووجد في نفسه الجرأة، فدعا إلى إحلالها محلَّ الحروف العربية؛ وهي – كما قال الدكتور محمد زهير مشارقة ممثل السَّيِّد الرَّئيس في ندوة اللغة العربية – «دعوة مشبوهة» تدعو إلى «إحلال العاميات الدارجة محلَّها لتفتيت الأمَّة الواحدة وتمزيق أوصالها، وإلى الكتابة بالحروف اللاتينية لقطع الصِّلة بين حاضر الأمة وماضيها»[٩].

ويتساءل الدكتور سمر فيصل عن النّيّات التي تقف وراء هذا الموضوع، ويعجب لهذا الحرص الذي يبديه بعضهم، ولا سيَّما الأجانب، «على نهضة الأمة العربية كما يحرص أبناؤها عليها!»[١٠]، وهم يقصدون صعوبة تعليم اللغة الفصيحة وتعلُّمها، وهذه الصعوبة كما يذكر الباحث فيصل «أمر مشترك بين اللغات جميعاً» ويقول: «إن اللغة – أيَّة لغة – صعبة يحتاج إتقانها إلى معارف نحوية، وبلاغية وعروضية، ومهارات لغوية كالحديث والقراءة

(٨) كتاب «مع النحاة»، ص ١١.

(٩) الثورة – ٢٣/ ١٠/ ٢٠٠٠.

(١٠) كتاب «اللغة العربية الفصيحة في العصر الحديث»، ص ٤٢.

والكتابة»[١١]، ثم يقول: «لكن ذلك لا يعني أن اللغات الحديثة سهلة، ولو كانت كذلك لما شكا أهلوها منها»[١١].

ويؤيّد ذلك ما تورده الباحثة الدكتورة بثينة شعبان، في مقال لها عنوانه «لغتنا العربية» نقلاً عن صحيفة «التايمز الإنكليزية»، في عددها الصادر في ٣٠/ ١/ ١٩٩٦، بأن «التلاميذ هم ضعاف في الإملاء.. وأن معظم الذين قدَّموا الاختبار لم ينجحوا في كتابة كلمات بسيطة مثل «ضروري» و«سكن»، والكلمات الوحيدة التي لم يخطئوا في كتابتها هي أسماؤهم وعناوينهم»!.

ويتساءل التقرير الذي تشير إليه التايمز «عن قيمة الشهادة التي ينالها هؤلاء التلاميذ إذا لم يحسنوا الكتابة، وعن نوع العمل الذي يمكن أن يقوموا به إذا كانت لغتهم بهذا الضعف». وترى الباحثة أن هذه المشكلة يجب «أن تعالج من جذورها» وأن يعاد النظر «بطرق وفعالية تدريس اللغة العربية في المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية»[١٢].

ويرى الباحث الدكتور فيصل أن صعوبة اللغة هي «صعوبة تربوية».. «لا علاقة لها باللغة، وإن كانت اللغة موضوعها..»[١٣]. ولا ننسى مع ذلك أن انتشار الأمية، في العصر العثماني خاصة، كان له أثره في نشوء هذا الوهم وقيام هذا الادّعاء. ومع ذلك فالأمية في تقلُّص سريع تملأ الفصيحة فراغه، على نحو أسرع من هذا الادِّعاء المغرض، فلا يبقى لمدَّعٍ حجَّة، ولا لمغرض سبيل.. وقد سمعتُ أمس حديثاً لباحث لغوي قال فيه إنّ أمَّه امرأة أُمِّيَّة، ومع ذلك كانت تفهم نشرة الأخبار الفصيحة فهماً كاملاً من غير أيِّ عائق..

ولن يفوتني، مع ذلك، أن أقول: إن اللغة العربية سايرت عصورها

(١١) – المصدر نفسه، ص ٤٥.

(١٢) تشرين – آفاق – شباط ١٩٩٦.

(١٣) اللغة العربية الفصيحة في العصر الحديث، ص ٤٥.

جميعاً، وقد تكون قصَّرت بعض الشيء عن مسايرة هذا العصر، لتراكم المطالب وكثرتها، وكان هذا التقصير أمراً مشتركاً في الميادين كلِّها، بسبب ما كابدت الأمةُ العربية، بعد الحملات الاستعمارية المتتالية التي تعرَّضت لها، واستطاعت مع ذلك أن تنهض نهضة جبَّارة، لا مثيل لها، دلَّت على أصالتها وغناها ومرونتها، ويلخص ذلك الدكتور عبد الكريم الأشتر، في بحثه الذي قدَّمه في ندوة اللغة العربية آنذاك، إذ قال: «إن واقع الكلمة العربية هو في حقيقته العميقة واقع الأمة العربية، فإذا صحَّ صحَّت، وإذا ساء ساءت»(١٤). ومثل ذلك قال العلامةُ الأستاذ حنَّا فاخوري: «كما يكون مستقبل الأمة يكون مستقبل اللغة، تنهض بنهوضها، وتزدهر بازدهارها»(١٥).

ومع هذا كلِّه، لابدَّ من وقفة عند بعض الآراء التي بحثت في ذلك، وكانت لا تقيس التقدم الذي نسعى إليه بما حقَّقناه حتى اليوم، وهو يبشِّر بالكثير.. إن اللغة التي تقطع هذا الشوط في وقت قصير، تقطع بلا شك أشواطاً أطول وأرحب، ولن يعوق خطوها عائق مهما شقَّ أو حَزُن، لأنها لغة عريقة أصيلة، أصلها في الأرض وفروعها في السَّماء، ولأن لها من تجارب الماضي ما يقوِّي عزمها ويدفع بها إلى مزيد من التقدم والفلاح..

ونقف أمام رأي يطرحه الناقد الدكتور محيي الدين صبحي يقول فيه من مقال له عنوانه: «هل تصمد العربية في القرن الحادي والعشرين؟».

«السُّؤال الذي يتردَّد على استحياء، هو: هل ستكون اللغة العربية لغة المستقبل العربي؟ ويجيب إن: «العوامل التي تجعل الإجابة بنعم غير محسومة تماماً، فمنذ مطلع القرن (العشرين) تقريباً ظهر التشكيك في قدرة اللغة العربية على التعبير عن الحضارة الغربية الوافدة، فقيل: إن العربية لغة الأدب،

(١٤) جريدة البعث – ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٧.

(١٥) جريدة البعث – ١/ ١٢/ ١٩٨٧.

والإنكليزية والفرنسية هما لغة العلم. وقد أثبتت هذه المقولة – كما يقول – قوَّتها، فمُنعت اللغة العربية من دخول مرحلة الدراسات العليا في العلوم الطبيعية والرياضية، وصارت الجامعات العربية إلى اليوم تدرِّس العلوم باللغات الأجنبية، ولا سيَّما أن اللغة العربية الحديثة ليس لها قاموس حديث يجمع ألفاظها المستحدثة والموضوعة والمعرَّبة..»[١٦].

وقد قلت آنذاك[١٧]:

«.. ولا أريد أن أسبق إلى رأي، ولكني أتساءل: من أين جاء هذا التقصير أو هذا القصور؟- إذا صحَّ تعميمه-، من اللغة العربية نفسها أم من بعض من يكتبون بها ويؤلفون؟ سؤال أسمح لنفسي بطرحه أرجو أن تأتي جهود اتحاد المجامع اللغوية بالجواب عنه..».

وأضيف إلى هذا التساؤل قولي: إن لغةً استطاعت أن تنهض سريعاً وأن تشقَّ طريقها على رغم الصُّعوبات والعقبات والتَّحدِّيات والمحاولات الاستعمارية المتتالية التي كانت تواجهها، وأن تساير التطوُّر اللغوي ومقتضيات العصر في التأليف والبحث العلميين وفي تدريس العلوم، على اختلافها، لن تقف عاجزة عن استكمال طريقها بعد أن قطعت هذا الشوط السَّريع في مسيرتها القومية واللغوية..، وبرهنت منذ اليوم الأول على أنها لغة العصر وكل العصور..

ويتحدثون عن التطور

وشيء آخر أضيفه، وهو أنَّ التطور ليس كلمة بسيطة نطلقها ولا نشفع ذلك بالعمل المسؤول الذي يضع الأمور في نصابها الصَّحيح.. إن من السهل على أحدنا أن يتكلم وأن يبدي رأياً أو يطرح سؤالاً أو يوجِّه انتقاداً..

(١٦) مجلة الثقافة الأسبوعية – السورية – السنة /٤٣/، ٤/ ٣/ ٢٠٠٠.

(١٧) «الأسبوع الأدبي»، ٢٤/ ٦/ ٢٠٠٠.

ولكن عليه أن يشارك أيضاً ولو في وضع حجر في المدماك الأصلي ولا يمرّ به مرَّ الكرام.. ومرور الكرام ينبغي أن يُعقِب كَرَماً أيضاً.. وألاَّ يسمح للشَّكِّ المصطنع أن يجعله يلقي الكلام على عواهنه، من دون أن ينظر ويشارك، وأن يدَّعي أن القافلة جامدة في مكانها لا تريم، فمن كان جامداً مثقل الخطو، لا يشارك في تبعةٍ، ما ينبغي أن يَصِمَ غيره بالجمود..

* * *

وإذ كُنَّا في صدد الحديث عن المجامع اللغوية، وجهودها المشكورة في هذا السَّبيل، أرى من المفيد أن أقف عند مقال قرأته في إحدى الصحف العربية(١٨)، عنوانه «دعم البحث العلمي أهمُّ من تشجيع مجامع اللغة» يقول فيه كاتبه إنَّه متَّفق مع كاتب آخر يشاركه في الرأي – أي أنهما صارا بقوة اثنين.. –، فهو يقول – أي الكاتب الآخر –: «بدلاً من أن تُوجَّه الأموال إلى المجمع اللغوي، والخروج بالتعريفات والمصطلحات التي قد تبتعد كثيراً عن المعنى الحقيقي، وتثير سخرية القارئ العربي (كذا) آمل أن توجه الجهود والأموال إلى البحث العلمي المعاصر، وبعدها فإن المصطلحات ولغتها ليست بالغة الصُّعوبة حين يتوفَّر (كذا) الأساس العلمي المتين»، ويقول: «الأمر الذي تتكرر الشكوى منه أنه قلَّما يلتزم أحد بهذه المصطلحات التي تقترحها هذه المجامع، وسبب ذلك واضح جداً. فهذا العمل المجمعي المضني لم يأت نتيجة للأبحاث العلمية، بل جاء نتيجة لعمل مقطوع عنها. وكما أننا لا نتعلم أية لغة عن طريق حفظ مفرداتها فقط، فإنه لا يمكن أن نعمم المصطلحات عن طريق توفيرها في شكل معاجم مقطوعة عن سياقاتها». ثم يقول:

«ثم إن العمل الذي تقوم به المجامع في صوغ هذه المصطلحات أحياناً، إن صحَّت الرواية في تصويره، عجيب: فيقال إن المتخصِّصين في اللغة العربية

(١٨) صحيفة «الشرق الأوسط»، ٢٨/ ٦/ ١٩٩٧.

يجتمعون، في بعض الأحيان، بالمتخصِّصين في العلوم المختلفة التي يراد صوغ مصطلحات لها. ثم يحاول هؤلاء أن يشرحوا للمتخصِّصين في اللغة العربية معنى المصطلح المعيَّن، ثم يقوم المتخصِّصون في اللغة العربية باقتراح مصطلح عربي ملائم. فإذا صحَّت هذه الرِّواية عن عمل المجامع اللغوية، فهي تنمُّ عن عدم الفهم لقضية المصطلحات من أساسها، وعدم الفهم للطريقة التي تعمل بها اللغة أصلاً».

ثم يقول:

«وقد كان مصطلح «الاستنساخ» محظوظاً؛ فقد أتاح له الإعلام انتشاراً واسعاً، ولم يرتبط المفهوم الذي يدل عليه بالمصطلح الأجنبي كما هي العادة في أغلب المفاهيم التي ترد إلينا... وينبغي أن يُشار إلى أن هذا المصطلح في لغته الإنكليزية غير دقيق أصلاً، إذ هو لا يعني إنتاج نسخة مماثلة تماماً (وكما تَقدَّم – والكلام له، والقوس له أيضاً– فإن الدِّقَّة ليست ضرورية، بل المهمّ القبول بالمصطلح..)».

* * *

أرى أن كلام الكاتب يحتاج إلى توضيح، فالبحوث العلمية جادة في عملها، وعلى نحو منسَّق ومنظَّم مع مجامع اللغة، وظاهر الحال يدل على أن هذا التنسيق يؤتي ثمراته يانعة في المجالات العلمية والتعليمية، ويذكر أنه غير راضٍ عن المصطلحات التي يضعها المجمع، وفي الوقت نفسه يرضى عن مصطلح غير دقيق كما يقول هو مصطلح الاستنساخ.. ونُذكِّر أن في القطر العربي السوري، وفي معظم الأقطار العربية، مؤسَّسات بحث علمي تشارك من غير شك في وضع المصطلحات العلمية.. ونذكِّر أيضاً أن المجمع اللغوي في سورية كان يسمَّى «المجمع العلمي العربي» لأنه كان في شغل شاغل بقضية المصطلحات العلمية وتلبية حاجة التعليم إلى التعريب، وكان مجمعاً علميّاً في

المنزلة الأولى، وهو يتألف اليوم من خمسة عشر عضواً اختيروا من بين أهل العلم والمعرفة وذوي الباع الطويل في اللغة والعلوم»[١٩].. ونَذكُر أيضاً مكتب تنسيق التعريب، في المغرب العربي، وهو تابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ويُذكر لهذا المكتب جهود جليلة تَوَّجَها بإصدار كتيِّبات خاصة ببعض الموضوعات، وبمجلة أدَّت للغة العربية خدمات جُلَّى. ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد الذي كان يشغل منصب رئيس جامعة عمان الأهلية، وهو من اللغويين البارزين، في مقال له أن هذا المكتب «أصيب في مراحل متعددة من مسيرته بضبابية الرؤية وغموض الهدف واضطراب الوسائل، حتى تضاءل دوره الآن»[٢٠]– ولن أورد في هذا المقال –كل ما قاله الدكتور ناصر الدين، فلهذا مجال آخر سيأتي – وأكتفي الآن بما قال في ضرورة التنسيق بين المجامع، وفي نوع المصطلحات وأسمائها. يقول:

«إن التنسيق بين المجامع واجب.. حتى إن بعضنا يذهب في هذا التنسيق إلى أن يكون للغة العربية مجمع واحد، وأن تكون المجامع القائمة الحالية أو التي ستقوم في المستقبل لجاناً محلية.. ومن مظاهر الشعور بالحاجة إلى هذا التنسيق إنشاء «اتحاد المجامع» الذي لا يزال بتكوينه وبعضويته قاصراً عن القيام بما نرجوه منه، وخاصة توحيد المصطلحات العلمية التي تكاثرت وتعددت، وأصبح كلُّ مجمع يضع ما يرتئيه منها في معزل عن أيِّ تنسيق، حتى صارت لنا لغات علمية مختلفة، يتعصَّب كل مجمع وكل قطر لما يضع منها، وكان الأمل أن يكون عمل تلك المجامع مجرد اقتراحات تمهيدية لعرضها على اتحاد المجامع، بعد إعادة تكوينه وتوسيع عضويته، ليكون هذا الاتحاد هو الجهة المختصة بإقرار المصطلح..

(١٩) تشرين – ٦٣٩٩–، ١١/ ١٢/ ١٩٩٥.

(٢٠) جريدة «الشرق الأوسط»، ٢٩/ ٦/ ١٩٩٣.

وما أشك، بعد إيراد هذا الرَّأي للدكتور ناصر الدين، أن اتحاد المجامع يقوم الآن بما ينبغي، ويضطلع بتبعاته كاملة، لأنه لم يُنشأ إلا لهذا الغرض. وهم لا يفتؤون يذكرون، في كل حين، ولا سيما في عيد مجمع اللغة العربية الماسي، أن «هدف اتحاد المجامع: تيسير اللغة، ونشر التراث، وتوحيد المصطلحات العلمية».

ويقول الدكتور ناصر الدين في نوع المصطلحات[٢١] وتسميتها:

«المصطلحات أسماء لمسمَّيات مادِّيَّة ملموسة، بذاتها أو بآثارها، وبعض هذه المصطلحات مأخوذ من أسماء الأشخاص الذين اكتشفوا مسمَّياتها أو اخترعوها أو صنعوها، فلا سبيل إلى تغييرها بألفاظ من لغة أخرى».

«أما المصطلحات الأخرى (غير المنسوبة إلى أسماء الأشخاص) فإن مواقف العلماء واللغويين تختلف فيها. وربما كان الموقف المعتدل هو الذي يرى أصحابه أن القضية علمية حضارية أكثر منها لغوية، أي أن المخترعات والمكتشفات والمصنوعات يسمِّيها أصحابها فتنتشر مع أسمائها. وحين كان العرب والمسلمون هم أصحاب العلم والحضارة أطلقوا المصطلحات بلغتهم العربية، فشاعت وأصبحت جزءاً من اللغات الأخرى حتى اليوم.

والمصطلحات العلمية العربية المنتشرة في اللغات الأوروبية، وخاصة لغات غربي أوربا، أكثر مما تنص عليه المعاجم حتى تذكر أصول الألفاظ، وأكثر مما يظن الناس. أما الآن، فإن غيرنا هو الذي يصنع العلم والحضارة، ويطلق عليها الأسماء (المصطلحات) بلغته، وسنكون قادرين على إطلاق تلك الأسماء بلغتنا العربية حين نستأنف رسالتنا الحضارية ونعود إلى صنع العلم، ولكن هذا لا يعني عدم التدريس باللغة العربية، فلغة التدريس واستعمال الجمل والعبارات الشارحة والموضحة والواصلة بين المصطلحات أمر غير المصطلحات

(٢١) جريدة «تشرين»، ١١/ ١٢/ ١٩٩٥.

نفسها. وهذا ما تفعله الأمم جميعها، فهي تستعمل لغاتها الوطنية في تدريس العلوم في جميع المراحل، حتى نهاية المرحلة الجامعية، فلا يجوز التذرع والاحتجاج بقضية المصطلح في تأخير استعمال اللغة العربية في تدريس العلوم؛ وكل هذا يحتاج إلى المزيد من التفصيل في توضيح الفرق بين المصطلحات ولغة التدريس والمصادر والمراجع ولغة البحث العلمي».

الدكتور ناصر الدين يعالج هنا مشكلة من أخطر مشكلات المصطلح العلمي، ولن يتسع المجال، هنا، للبحث فيها بالتفصيل اللازم، وإن كنت لا أشكُّ أن اتحاد المجامع ينظر فيها جميعاً، ولا يألو في ذلك جهداً، مهتدياً بنهجه القومي والتراثي السَّليم، وأرى في الوقت نفسه أن المشكل ليس في الألفاظ وحدها، فقد نتساهل أحياناً، وموقتاً، في اللفظ لأسباب موجبة، أو ضرورية، ولكن يجب ألا يكون تساهل في التركيب والتعبير، مهما تكن الأسباب.. والحجج.. والأعذار..

هذا، ويوضح الدكتور شوقي ضيف، نائب رئيس مجمع اللغة العربية في القطر العربي المصري[٢٢] «أن المجامع العربية، منذ أُنشئت وضعت في قانونها موادَّ.. منها تعريب المصطلحات العلمية، في مختلف العلوم، إذ كان علماء الطب والهندسة والكيمياء، يجدون صعوبات في ترجمة المصطلح، وبالتالي وَضَع المجمع عشرة معاجم في المصطلحات العلمية وتعريبها حتى الآن».

ولما سئل الدكتور ضيف عن الهدف من قيام اتحاد المجامع أجاب: إنه «القضاء على البلبلة العلمية الشائعة، وقال: إن أمتنا استطاعت أن تنهض نهضة علمية عالمية»[٢٣].

(٢٢) جريدة «الشرق الأوسط»، ٨/ ٦/ ١٩٩٣. [الأستاذ الدكتور شوقي ضيف هو الآن رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة/المجلة].

(٢٣) جريدة «تشرين»، العدد ٦٣٩٩، ١١/ ١٢/ ١٩٩٥.

ولاشك أن الدكتور شوقي ضيف ألجم، بتصريحه هذا، الأفواه المريضة التي تدَّعي أن اللغة العربية قاصرة عن مواكبة التقدم العلميّ والتقنيّ وحاجات العصر.

وفي الجهد الكبير الذي تبذله مجامع اللغة العربية والمؤسَّسات العلمية يقول الأستاذ االكبير صلاح الدين الزَّعبلاوي في كتابه «مع النحاة» الصادر عن اتحاد الكتاب العرب(٢٤):

«اتسع العمل في مجامع اللغة.. وفي المؤسسات العلمية واللغوية الأخرى.. إذ أثمر غرس جهودها في مضمار استحداث الألفاظ والمصطلحات العلمية معاجمَ متخصِّصة في علوم الطب والصيدلة والزراعة والكيمياء والفيزياء وغيرها».

وقال: «وقد غدت الحاجة ماسَّة إلى وضع معاجم لألفاظ الحضارة المادِّيَّة وأخرى لمصطلحات الهندسة والفيزياء النووية وعلم النبات والحيوان والجيولوجيا وعلم الاقتصاد وعلم النفس والتربية وعلم الآثار والجغرافية والتاريخ، والفنون والفلسفة، فخطت المجامع في هذا المضمار خطوات فسيحة جادَّة».

ويشترط الأستاذ الزعبلاوي، في وضع هذه المعاجم، أن يستفاد من بعض كتب التراث، فيقول:

«ولابد من الإفادة، في وضع مثل هذه المعاجم، من العودة إلى كتب التراث ككتاب «أقراباذين القلانسي» في مصطلحات الصَّيدلة، و«بحر الجواهر» لليوسفي الهروي، وشرح تشريح القانون لابن سينا، للطبيب المعروف ابن النفيس، ومفاتيح العلوم للخوارزمي، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي».

وقد سبقت الإشارة إلى أن تعريب العلوم عندنا قديم، وأن العرب قاموا

(٢٤) «مع النحاة»، ص ٩، ١٠.

بواجبهم في هذا المجال منذ العصر العباسي خاصة، بل قبل ذلك بقليل، وسيُتمُّون مسيرتهم هذه، كما يقول الأستاذ الزعبلاوي، وهم يملكون كل الوسائل اللازمة لذلك. وسنتحدث بالتفصيل عن تجربتهم هذه في مقال آتٍ، ونعرض للمنهج المتبع في ذلك.

* * *